وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

العدد المزدوج الحادي عشر والثاني عشر السنة 1421 هـ - 2000 م

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - بجامعة الجزائر

العدد الحادي عشر والثاني عشر (عدد مزدوج)

1419 - 1420 هجري / 1998-1999 ميلادي

الرئيس الشرفي: أ.د. طاهر حجار، مدير جامعة الجزائر

مدير النشر: د. الحواس مسعودي، نائب مدير الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

مدير المجلة: مدير معهد التاريخ د. بوعزة بوضرساية

رئيس التحرير: أ. د. ناصر الدين سعيدوني

هيئة التحرير: مكون من الأساتذة:

د. أبو القاسم سعد الله

د. محمد بشير شنيتي

د. مسعودة يحياوي

د. جمال قنان

د. عمر بن خروف

«المقالات والآراء تعبر عن وجهة نظر أصحابها»

عنوان المراسلة: معهد التاريخ، بوزريعة، جامعة الجزائر

تصفيف، إخراج، طباعة وتوزيع:

دار الحكمة

01 نهج أملكار كابرال – ساحة الشهداء – الجزائر

الهاتف/الفاكس: 71.08.96 (02)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم العدد المزدوج الحادي عشر والثاني عشر

يسر أسرة مجلة الدراسات التاريخية لمعهد التاريخ أن تقدم للقارئ الكريم العدد المزدوج الحادي عشر والثاني عشر، الذي تنوي أن تختتم به سلسلتها الأولى، وقد تضمن لهذا الغرض فهرسا عاما بكل محتويات أعداد المجلة.

إن صدور هذا العدد يمثل هذا الشكل والمحتوى، لدليل على أن مجلة الدراسات التاريخية قد اكتمل نموها وتحددت معالمها واستقر هيكلها ووضح محتواها ... فحقّ لها أن تحتل مكانها المميز بين العديد من الدوريات العلمية المحترمة ... وأن تطمح في الأعداد القادمة من سلسلتها الثانية – إن شاء الله – أن تكون أكثر إتقانا وأحسن إخراجا وأثرى معالجة وأعمق تعبيرا عن هموم المؤرخ الجامعي وتطلعات الباحث الأكاديمي في ميدان التاريخ ...

إن هذا العدد لم يكن ممكنا إخراجه بهذا الشكل لولا التشجيع الأدبي والمادي من رئاسة جامعة الجزائر، فلها من هيئة المجلة كل تحية وتقدير، كما أن هذا العدد لم يكن يتيسر تقديمه للقارئ بهذا المحتوى لولا المساهمة العلمية لنخبة من الأقلام التاريخية من معهد التاريخ وخارجه، فلهم منا كل الشكر والتحية.

فبفضل هذا الإسهام العلمي وذاك العون المادي جاء هذا العدد زاخرا بالعديد من البحوث، غنيا بالينابيع الثرية من الرؤى والتصورات التاريخية، معرفا بالعديد من الإسهامات العلمية المتمثلة خاصة في تقديم الأطروحات الجامعية في مجال البحث التاريخي.

يوافق صدور هذا العدد المضاعف الذكرى الثلاثين لتخرج أول دفعة لحاملي شهادة الكفاءة العليا في التاريخ والجغرافية من معهد الدراسات العربية العليا

بالجامعة الجزائرية، والتي كان لأفرادها شرف تدريس التاريخ باللغة الوطنية لأول مرة في تاريخ الجزائر بجانب إخوانهم من خريجي المشرق العربي.

لقد درست هذه الدفعة الأولى والوحيدة والمؤلفة من حوالي خمسين طالبا لمدة ثلاث سنوات (1963 - 1966) مادة التاريخ محتوى ومنهجا ومعالجة، على الرعيل الأول من أساتذة التاريخ، وفي مقدمتهم معلم الجيل المرحوم أ. د. محمد عبد الهادي شعيرة، فكان ذلك بداية ملحمة بطولية كان طريقها محفوف بالصعاب والعقبات، لم يكن غلق معهد الدراسات العربية العليا وتصفيته في عامه الثاني (1964) إلا بداية لمحنة الثقافة في الجزائر بلغة الضاد ... ولم يكن إنشاء أقسام للتاريخ بكليات الآداب الجزائرية، وإتمام تعريب مادتي التاريخ والجغرافية في المؤسسة المدرسية الجزائرية إلا مؤشرات انتصار ومعالم نجاح في معركة حضارية لم تحسم حتى الآن ...

فمن حق الجيل الحالي من المؤرخين الشباب، أن يعرفوا محطات طريق الأمس، وأن يقدروا جهود من سبقهم في هذا الدرب الصعب، لأن في معرفة ذلك ما قد يساعدهم على تجنب العثرات ويقيهم الوقوع في المزالق والتيه في عالم الشعارات والأماني الكاذبة .. لا سيما وأن المعركة الدائرة اليوم في الجزائر وباقي البلاد العربية الإسلامية، بغض النظر عن جوانبها المادية ومظاهرها الآنيّة هي معركة بناء ذهنية وتصور معرفي وقناعات مبدئية ... أساسها إن لم نقل جوهرها، قضية التعامل مع التاريخ ... فمن يملك التاريخ ومن له القدرة على تفسير أحداثه وتقييم نتائجه والانتفاع بتجاربه، تكون له الكلمة الأخيرة في هذه الملحمة الحضارية والتي – دون كسبها – لا يمكن وضع قدم مأمونة في عالم القرن الواحد والعشرين.
ولعله من البديهي في هذا المقام التأكيد على أن الذاكرة التاريخية التي أساسها النظرة العلمية والحكم الموضوعي والتصوّر الإنساني، هي العامل الحاسم في إخراجنا من بؤر التآكل الذي تسببت فيه إحباطات الواقع المعيش، كما أنها الوسيلة الفعالة التي تجنبنا الوقوع في أوهام الميول الذاتية وتصوراتها القاصرة وتصرفاتها المدمرة ...

فمن خلال هذه النظرة تكتسي مجلة الدراسات التاريخية أهميتها، بل ضرورة وجودها، فهي خير مساعد لنا على تحرير أنفسنا وامتلاك تاريخنا. كما أنها المنطلق الصحيح في نظرنا لإعادة الوعي التاريخي بوجودنا، ولعل هذه التطلعات ليست بعيدة المنال ولا صعبة التحقيق، إن عرفنا كيف نجعل من مجلة الدراسات التاريخية منطلقا صحيحا للوعي برسالة المؤرخ، ووسيلة صادقة لرصد تطلعات الباحث في التاريخ، فيصبح بذلك اختلاف التصور تطورا، وتعدد المواقف ثراء، وتضارب الرؤى حصانة حضارية، وتباين الأفكار وتعدد التحاليل سياجا يقينا المظاهر المرضية التي تتربص بالمؤرخ: من ميول سياسة آنية، ومواقف اديولوجية ظرفية، ومصالح شخصية ضيقة...

من أجل ذلك فإن مجلة الدراسات التاريخية ترى أن وجودها يظل مرتبطا بكونها منبرا حرا معبرا عن معاناة المؤرخ الجزائري، وارتباطه بواقع مجتمعه، وحاجات عصره، لأنه دون ذلك تفقد مبررات وجودها، بل تصبح نشرة عادية أو إصدارا روتينيا قد يكرس الرداءة، ويشيع الإسفاف الثقافي، ويوسع ثُقبَ الذاكرة.

هذا وحتى تقوم مجلة الدراسات التاريخية بهذه المهمة العلمية المنوطة بها وتؤدي الرسالة الثقافية التي تحملها، فإنها تتوجه إلى كل الطاقات العلمية في مجال الدراسات التاريخية للإسهام فيها بالمزيد من الإنتاج والعطاء لأن الوجود كلمة مسجلة، والبقاء موقف صادق، والخلود فكرة رائدة.

وفقنا الله لما فيه خير الشعب والوطن.

رئيس مجلس البحث العلمي لمعهد التاريخ

أ. د. ناصر الدين سعيدوني

بالجامعة الجزائرية، والتي كان لأفرادها شرف تدريس التاريخ باللغة الوطنية لأول مرة في تاريخ الجزائر بجانب إخوانهم من خريجي المشرق العربي.

لقد درست هذه الدفعة الأولى والوحيدة والمؤلفة من حوالي خمسين طالبا لمدة ثلاث سنوات (1963 - 1966) مادة التاريخ محتوى ومنهجا ومعالجة، على الرعيل الأول من أساتذة التاريخ، وفي مقدمتهم معلم الجيل المرحوم أ. د. محمد عبد الهادي شعيرة، فكان ذلك بداية ملحمة بطولية كان طريقها محفوف بالصعاب والعقبات، لم يكن غلق معهد الدراسات العربية العليا وتصفيته في عامه الثاني (1964) إلا بداية لمحنة الثقافة في الجزائر بلغة الضاد ... ولم يكن إنشاء أقسام للتاريخ بكليات الآداب الجزائرية، وإتمام تعريب مادتي التاريخ والجغرافية في المؤسسة المدرسية الجزائرية إلا مؤشرات انتصار ومعالم نجاح في معركة حضارية لم تحسم حتى الآن ...

فمن حق الجيل الحالي من المؤرخين الشباب، أن يعرفوا محطات طريق الأمس، وأن يقدروا جهود من سبقهم في هذا الدرب الصعب، لأن في معرفة ذلك ما قد يساعدهم على تجنب العثرات ويقيهم الوقوع في المزالق والتيه في عالم الشعارات والأماني الكاذبة .. لا سيما وأن المعركة الدائرة اليوم في الجزائر وباقي البلاد العربية الإسلامية، بغض النظر عن جوانبها المادية ومظاهرها الآنيّة هي معركة بناء ذهنية وتصور معرفي وقناعات مبدئية ... أساسها إن لم نقل جوهرها، قضية التعامل مع التاريخ ... فمن يملك التاريخ ومن له القدرة على تفسير أحداثه وتقييم نتائجه والانتفاع بتجاربه، تكون له الكلمة الأخيرة في هذه الملحمة الحضارية والتي – دون كسبها – لا يمكن وضع قدم مأمونة في عالم القرن الواحد والعشرين.
ولعله من البديهي في هذا المقام التأكيد على أن الذاكرة التاريخية التي أساسها النظرة العلمية والحكم الموضوعي والتصورّ الإنساني، هي العامل الحاسم في إخراجنا من بؤر التآكل الذي تسببت فيه إحباطات الواقع المعيش، كما أنها الوسيلة الفعالة التي تجنبنا الوقوع في أوهام الميول الذاتية وتصوراتها القاصرة وتصرفاتها المدمرة ...

فمن خلال هذه النظرة تكتسي مجلة الدراسات التاريخية أهميتها، بل ضرورة وجودها، فهي خير مساعد لنا على تحرير أنفسنا وامتلاك تاريخنا. كما أنها المنطلق الصحيح في نظرنا لإعادة الوعي التاريخي بوجودنا، ولعل هذه التطلعات ليست بعيدة المنال ولا صعبة التحقيق، إن عرفنا كيف نجعل من مجلة الدراسات التاريخية منطلقا صحيحا للوعي برسالة المؤرخ، ووسيلة صادقة لرصد تطلعات الباحث في التاريخ، فيصبح بذلك اختلاف التصور تطورا، وتعدد المواقف ثراء، وتضارب الرؤى حصانة حضارية، وتباين الأفكار وتعدد التحاليل سياجا يقينا المظاهر المرضية التي تتربص بالمؤرخ: من ميول سياسة آنية، ومواقف اديولوجية ظرفية، ومصالح شخصية ضيقة...

من أجل ذلك فإن مجلة الدراسات التاريخية ترى أن وجودها يظل مرتبطا بكونها منبرا حرا معبرا عن معاناة المؤرخ الجزائري، وارتباطه بواقع مجتمعه، وحاجات عصره، لأنه دون ذلك تفقد مبررات وجودها، بل تصبح نشرة عادية أو إصدارا روتينيا قد يكرس الرداءة، ويشيع الإسفاف الثقافي، ويوسع ثُقبَ الذاكرة.

هذا وحتى تقوم مجلة الدراسات التاريخية بهذه المهمة العلمية المنوطة بها وتؤدي الرسالة الثقافية التي تحملها، فإنها تتوجه إلى كل الطاقات العلمية في مجال الدراسات التاريخية للإسهام فيها بالمزيد من الإنتاج والعطاء لأن الوجود كلمة مسجلة، والبقاء موقف صادق، والخلود فكرة رائدة.

وفقنا الله لما فيه خير الشعب والوطن.

رئيس مجلس البحث العلمي لمعهد التاريخ

أ. د. ناصر الدين سعيدوني

كلمة المجلة

إنّ خير ما تستهل به الإدارة الجديدة لمعهد التاريخ مهمتها التربوية ونشاطها العلمي، هو إصدارها لهذا العدد المزدوج الذي تختم به مجلة الدراسات التاريخية سلسلتها الأولى، متمنين أن يكون ذلك حافزا على إصدار السلسلة الثانية، ومنطلقا لتحقيق إنجازات ثقافية تكون في مستوى طموح جيل الشباب من المؤرخين.

إنّ رسالة معهد التاريخ التربوية ومهمته العلمية لا تكتمل بتغطية المناهج الدراسية ولا تتحقق بالتلقين الشفوي، والدراسة النظرية فقط، وإنما يتوجب فيها - حسب رأينا - إكتساب صفة التوثيق وطبيعة العمل المطبوع، لأنه الكفيل بجعل الجهد التاريخي يكتسب صفة الديمومة والتواصل والتأثير، وهذا ما يجعل مجلة الدراسات التاريخية في نظرنا الأداة الكفيلة بنشر العطاء التاريخي المبدع والوسيلة الفضلى لتمكين جيل جديد من المؤرخين من إكتساب الخبرة والتمرس على الكتابة والتدرب على معالجة الأفكار والاحتكاك بالآراء.

لكن رسالة مجلة الدراسات التاريخية هذه تبقى محدودة الفاعلية إذا لم تتظافر جهود الجميع على الإرتقاء بمستواها وتطوير محتواها. وهذا ما يدفعنا إلى التوجه إلى أساتذة معهد التاريخ وإلى كافة المهتمين بدراسة التراث التاريخي لمساعدة القائمين على هذه المجلة، وذلك بالمساهمة فيها بالطريف من الأبحاث والجديد من العروض والمبتكر من الأفكار والآراء التاريخية، لتكون هذه المجلة في سلسلتها الثانية مخبرا علميا لتطوير البحث ووسيلة معرفية لترقية الإنتاج التاريخي في إطاره الوطني وتوجهه المعرفي وطابعه الأكاديمي وروحه العلمية ونظرته الموضوعية، وبذلك فقط يمكن لنا القول بأننا تجاوزنا نقص معرفتنا وقصور أنفسنا وحدود أفقنا.

والله ولي التوفيق

مدير معهد التاريخ / مدير المجلة
د. بوعزة بوضرساية

كلمة السيد رئيس جامعة الجزائر

إن هذا العدد المزدوج الحادي عشر والثاني عشر الذي تصدره مجلة الدراسات التاريخية بمناسبة مرور ثلاثين سنة (1966 - 1996) على تخرج أول دفعة من المؤهلين الجامعيين في تاريخ الجزائر لخير دليل على النجاحات التي حققتها جامعة الجزائر العتيدة في أداء رسالتها العلمية، وتزويد الوطن بما يحتاجه من إطارات كفأة، كما أنه أحسن شاهد على القدرة العلمية لمختلف معاهد جامعة الجزائر ومنها معهد التاريخ، على المساهمة الثقافية المتميزة والتي تشهد عليها مادة هذا العدد الثرية ونوعية بحوثه الجادة وعروضه القيمة، إضافة إلى الفهرس العام للأعداد السابقة، والذي يعتبر بحق مرجعا ثريا للطلبة والباحثين. وهذا ما يدعم الرسالة العلمية المنوطة بمعهد التاريخ ويؤكد في أن واحد المساهمة الإيجابية للباحث الجامعي في مجال البحث التاريخي ...

إن جامعة الجزائر باعتبارها الإطار الذي يوفر المناخ العلمي والبيئة الثقافية، لا يسعها إلا التنويه بمجهود القائمين على هذه المجلة وتقديم كل عون ضروري لهم، حتى تظل هذه المجلة إحدى المنابر العلمية الرائدة في الدراسات التاريخية الجزائرية، وبذلك تحقق جامعة الجزائر إحدى مهامها الرئيسية وهو تأصيل الثقافة الاكاديمية في المجتمع وتمكين المهتمين بقضايا التراث التاريخي أن يلبوا حاجات المجتمع وأن يستجيبوا لتطلعات جيل الشباب من الجامعيين ...

إنّ هذا العدد المزدوج بمحتواه المعرفي وبمنهجيته العلمية يبشر بانبعاث توجه أكاديمي لدراسة التاريخ فهو يعطي الانطباع للأسرة الجامعية بأن شروط البحث العلمي قد أصبحت في حيز الإمكان وهذا ما يساعد على انبثاق مدرسة تاريخية جزائرية أصيلة قادرة على فرض نفسها على الواقع الجزائري وتجاوز إحباطاته، ولعل مادة هذا العدد الممتاز لخير دليل على أن تلك الأمنية لم تعد خيالا يراود

النفس، وإنما أصبحت حقيقة تحتاج إلى المزيد من بذل الجهد والعطاء والابداع.
فإلى مزيد من الخطوات العلمية الرائدة في هذا المسعى النبيل ... وفقكم الله.

رئيس جامعة الجزائر

أ. د. طاهر حجار

كلمة رئيس المجلس العلمي للمعهد

يسعدني أن أعبر بصفتي رئيسة مجلس البحث العلمي لمعهد التاريخ بمناسبة صدور هذا العدد من مجلة الدراسات التاريخية، عن اعتزازي بهذا الانجاز، وتقديري لهذا المعين العلمي الذي يثري المكتبة التاريخية الجزائرية، وبهذا المنبر الحر لأقلام المؤرخين الجزائريين.

كما لا يفوتني بهذه المناسبة أن أنوه بمجهودات الأستاذ د. ناصر الدين سعيدوني الذي تولى اصدار هذه المجلة منذ نشأتها، والذي كان لي شرف أن أواصل جهده منذ أن خلفته في رئاسة مجلس البحث العلمي لمعهد التاريخ، آملة أن تتظافر الجهود لخدمة البحث التاريخي والرقي به إلى ما يحقق المنفعة العامة ويدعم مكاسب الاستقلال.

د. مسعودة يحياوي
رئيسة المجلس العلمي

كلمة تأبين الأستاذ اسماعيل العربي

شمعة تنطفئ *

أ. د. ناصر الدين سعيدوني

ليس العمر أياما نعيشها ولا المجد مكاسب مؤقتة نفرح بها، وإنما الحياة رسالة تؤدى والوجود مهمة تنجز والأيام كفاح يسجل، لأن حياة الفرد بل جوهر الكون في حد ذاته فكرة، وأن لا وسيلة لتحقيقها إلا بالعمل الجاد ولا طريق لتخليدها سوى جعلها ذكرى تحفظ وعبرة تستقرأ، ما دامت شروط الحياة البشرية تختصر العمر في كونه إشارة مرور في طريق طويل أبدي نعبر عنه في اصطلاحنا اللغوي بالزمن، لم نختر بدايتنا بالنسبة إليه، كما لا نعرف نهايتنا عند إحدى محطاته، فكما قال الشاعر الفرنسي لامارتين وهو يعاني لوعة الفراق في رائعة البحيرة: «لا مرفأ ينتهي إليه الانسان ولا شاطئ يقف عنده الزمان، إنه يمر ونحن نمضي». L'homme n'a point de port, le temps n'a point de rive: il coule et nous passons.

كل ذلك توارد في خاطري عندما علمت بوفاة الأخ والزميل الأستاذ اسماعيل العربي وأنا أدرس بجامعة آل البيت بالأردن وأحن إلى كل خبر عن الأهل والأصدقاء والوطن، فراعني موته بعيدا عن موطنه الجزائر(1)، فأحسست بمأساة الفكر في مجتمعنا وتجرعت مرارة الجحود الذي يعانيه أهل العلم والمعرفة

(*) - كلمة تابين الأستاذ اسماعيل العربي (1919-1997).

(1) - توفي بالمغرب الأقصى في 31 مارس 1997، ونقل جثمانه ليدفن بمقبرة العالية بالجزائر.

بالجزائر. فكان علي أن أكتب كلمة وداع وتقدير لصديق رحل ولم يعد ممكنا الالتقاء به مرة أخرى في عالم الأحياء، كما كان علي أن أسجل موقفا قد لا يفهمه مجتمعنا الآن، ولكن سوف يكون رسالة لأجيال المستقبل تطلعهم على حالة البؤس ووضع المأساة التي طبعت حياة المثقفين في جزائر الاستقلال.

ليس لخبر الموت في حد ذاته معنى آخر خارج الذكرى والعبرة، لأن الموت خاتمة مطاف كل حي، ولكن الموت تصبح له كل الدلالات عندما يتعلق الأمر برحيل رجل علم وعمل ومثقف مبادئ وقيم مثل الأستاذ اسماعيل العربي، وهذا ما هز نفسي واعتصر قلبي وكاد يحرق ذاكرتي، لأنه يحمل تعبيرا أعمق عن واقع يعانيه المبدع ويتجرعه المثقف في جزائر الزمن الردئ ...

لقد كانت معرفتي بالأستاذ اسماعيل العربي محدودة في مظاهرها ولكنها عميقة في جوهرها، منذ أن تكرر لقائي به في مكاتب الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر في السبعينيات، ثم شاءت الظروف أن نقضي وقتا معا في الندوة الثانية للجنة العالمية للدراسات الموريسكية بتونس (ديسمبر 1983) وأن نمضي أياما ممتعة ببغداد في الندوة القومية لكتابة التاريخ (ديسمبر 1997)، فتعمقت معرفتي بالرجل ولمست فيه عن قرب عمقه المعرفي واحساسه الانساني ومساهمته العلمية، وكان أكثر ما استرعى انتباهي جلده وصبره ومواظبته على العمل وعمق إيمانه بقيم الشعب الجزائري من حرية وعروبة واسلام، فلا زال موقفه مرتسما في ذهني عندما كان النقاش محتدا في مقر اتحاد المؤرخين العرب ببغداد بين جمع خير من أبناء المغرب العربي، فراعه ميل بعض المغاربة والجزائريين إلى الأخذ بمفهوم الثقافة المحلية لبلاد المغرب على حساب بعدها وهويتها العربية الإسلامية، فكان جوابه وهو الأمازيغي الحر «أنها (الدعوة البربرية) شيء نتن، ضعوه في الثلاجة ولا تفتحوها إلا بعد خمسين سنة، أي بعد أن تأخذ لغة القرآن مكانها الطبيعي في بيتها وبين أهلها ...».

لقد أحسست في مناقشاتي مع الأستاذ اسماعيل العربي أنه رجل جرح في كرامته ومس في عزة نفسه، وهذا أقسى ما يعانيه الرجل الشريف في مواقف يقل فيها النزهاء ويندر فيها الشرفاء ويغيب فيها الرأي الشجاع وتمحي الكلمة الصادقة ... فقرأت في عيونه بريقا خافتا وكأنه سراب واقع الجزائر التي تنكرت

للمخلصين وهمشت العاملين وتبنت الأعداء ورعت الخصوم ... وأحسست في نبراته بحة وتهدج عميق ورنات حزن على ماض عزيز عاشه وجهاد علم واصلاح شارك فيه، كما استقرأت في خطواته المتأنية التي أثقلها تقدمه في السن رغبة جامحة في الهروب من واقع فيس فيه ما يخفف معاناة المثقف، وإنما فيه كل ما يجهض الفعل المبدع ويقضي على الموقف المسؤول ... وكدت أقتنع بأن تصرفاته ما هي إلا تعبير صريح عن حيرة رجل لم يعد يعيش واقعه لأنه لا يستطيع أن يدفع الثمن المطلوب منه ليعيش ذلك الواقع، وهو التنكر لعزة النفس والدخول في جحور الأقزام وترديد قناعاتهم المبتذلة ...

لقد كان الأستاذ اسماعيل العربي عملاقا في عالم قل فيه العمالقة وأصبح أغلب أفراده من الأقزام، عرف كيف يحتفظ بكرامته ويعطي الاعتبار لنفسه، فتحول كما تحول آخرون على شاكلته بعيدا عن مسرح المأساة -الملهاة حيث يمارس الفعل المخل بالحياء في حق الثقافة، ونأى بنفسه عن مجتمع يهمش الفاعلين ويرعى الانتهازيين والوصوليين، وغاب عن زمن ردئ ليس فيه مكانة إلا للمواقف المتخاذلة ولا مجد فيه إلا للهزائم المتكررة ... فكان الأستاذ اسماعيل العربي بحق نسرا محلقا هجر أرضا عاث فيها البغاث، ليستقر على القمم الشامخة ليمارس فوقها الموت البطئ، ولكنه أحسن بكل المعايير والقيم من حالة جزائر البعض وليس الكل، جزائر ترى في كل مبدع من أبنائها ومنتج من أهلها ظلا يجب أن ينزاح وضيفا ثقيلا يطلب منه أن يرحل ...

كانت حياة الأستاذ اسماعيل العربي حياة عطاء وبذل ومساهمة، منذ دراسته الأولى بزاوية سيدي موسى بموطنه بني وغليس على مشارف وادي الصومام، وأثناء تعلمه بالجامع الأخضر بقسنطينة وتأثره بالشيخ الامام عبد الحميد بن باديس واحتكاكه بالمصلح الشيخ الفضيل الورثلاني، وعند تحوله إلى فرنسا (1938) حيث سمحت له الظروف أن يتعرف على البلاد الأوربية، أو عند توجهه إلى المشرق العربي ليتعرف على مظاهر النهضة به، فجمع في هذه الحياة الغنية والمضطربة شرف مهنة التعليم ورسالة الإصلاح، فأدى مهمة التفتيش العربي بتكليف من الشيخ محمد البشير الابراهيمي على خير وجه، كما برز في الميدان الصحفي بإدارته لمجلة شمال افريقيا، وفي عمله بهيئة الاذاعة البريطانية ثم اذاعة هولاندا. وخبر السياسة وتعرف على وجوهها عندما تولى إدارة مكتب الحكومة

الليبية ببني غازي على عهد الملك ادريس السنوسي، أو أثناء تعامله مع مصالح الأمم المتحدة بجنيف ... وترك الأستاذ اسماعيل العربي كل ذلك ليعود إلى الجزائر بعد الاستقلال ليتفرغ للتأليف في مجالات التاريخ والثقافة والسياسة والأدب، وخاصة في مجال الترجمة والتحقيق ومعالجة القضايا المعاصرة، فكان من القلائل الذين أغنموا المكتبة العربية بالجزائر بما لا يقل عن خمسين تأليفا.

لقد كان عدو الأستاذ اسماعيل العربي ومن شاكله في الاهتمام وشاركه في القناعات، هو ذلك الأخطبوط الإداري الفرانكفوني الذي جثم على صدر الجزائر بعد الاستقلال، بعد أن اكتسب في إطار بناء الدولة الجزائرية صلاحيات غير محدودة مكنته أخيرا أن يحطم الدولة ويلتهم المجتمع ويحول ثورة التحرير إلى مكاسب شخصية بعد أن كانت وستظل في نفوس المخلصين من أبنائها قيما روحية ومواقف بطولية. لقد دمر هذا الأخطبوط الاداري كل شيء جميل في الجزائر، فقتل الابتسامة وألغى الأمل ونسف الذاكرة وحطم الخيال وجعل من أعزة القوم أذلة ودفع بالثقافة ورجالها وبالجامعة واطاراتها إلى الجحيم ..

قد يكون كل ذلك -نظرا لأوضاع الجزائر- شيئا مبررا، لأنه تعبير عن سلوك مرضي لا يحسن سوى تقليد أساليب الاستعمار الذي ارتحل عن الجزائر وترك بها تلاميذ أغبياء وببغاوات حمقاء ... ولكنه غير مبرر عندما يمارس هذا السلوك البيروقراطي المستلب والمدمر من طرف الجميع وبتواطؤ بل وبمباركة الجميع ... في حق الثقافة ورجالها والعلم وأهله، لأنه تسبب وسوف يتسبب في انطفاء الشموع فيغدو ظلام الثقافة في الجزائر أكثر حلكة ويتحول ما بقي من أكسجين في جوها المعرفي إلى هواء مختنق ومتعفن، كيف لا يكون حكمنا على الوضع قاسيا وقائمة رجال الفكر والثقافة والعلم والفن والصلاح في الجزائر تطول ليس بالتحاق الأحياء بها، وإنما برحيل المزيد من الأموات عنها، فلا رعاية لهم في حياتهم ولا تقدير لجهدهم ولا تكريم لاسهامهم، بل هناك صمت وتجاهل يجعل الملاحظ البعيد يرى فيهم مجرد مشاغبين يستريح المجتمع بذهابهم وحمقى يتخلص الوطن من ضررهم ... كيف نعيد الذاكرة لجيل الضياع من الجزائريين، وهو يلمس انزواء ورحيل وموت العصبة الخيرة من هذا الشعب، كيف يعود إليه الوعي وهو على سبيل المثال لا الحصر يرى أن الشيخ محمد البشير الابراهيمي مات وكأنه نكرة (1964) ومالك بن نبي ذهب وكأنه لم يفكر (1973) والشيخ توفيق

المدني انقضى وكأن لم يكتب (1983)، مولود قاسم توارى وكأنه لم يثر نقع الاجتماعات وصخب المهرجانات (1992)، ورابح بونار، والمهدي البوعبدلي، ومحمد علي دبوز، واسماعيل العربي (1997)، ونور الدين عبد القادر، وعطا الله دهينة، وعلي مغربي، رحلوا كلهم وكأنهم لم يقدموا شيئا للثافة الجزائرية ... وغيرهم وغيرهم وغيرهم كثيرون في جميع أصناف العلم والثقافة والفن والأدب.

إن هذا الواقع المعادي للفكر والثقافة الذي مارسته الإدارة الجزائرية بفعل توجهاتها وقناعاتها طيلة عشريات الاستقلال، لم تعد آثاره المدمرة تقف عند حد إلغاء تأثير المثقفين، بل نجح في القضاء نهائيا على الطبقة الوسطى أساس تطور كل شعب ومنطلق نهضة كل أمة ... إن هذا الخصم الخارجي لا يمكن أن ينسينا عداءنا لأنفسنا وتحطيمنا لذاتنا، فأصبحت مأساتنا مضاعفة وقهرنا مزدوجا، فكان سلوك الأنانية والغرور بالنفس والميل إلى اقصاء بل الغاء الآخر عاملا مساعدا للسلوك البيروقراطي الجزائري المعادي للثقافة غير المدجنة، بل كان سببا في القضاء على كل عمل جماعي أو إنجاز مشترك وعلة في ظهور سلوكات تقوم على التنكر لكل كاتب مجدد أو مفكر حر. فلم تعد دنيا الثقافة في جزائرنا فضاءات يمارس فيها الإبداع، وإنما أصبحت سجنا يتدرب فيه على تعذيب النفس، فالعالم الفسيح من حولنا أصبح في فكرنا ثقبا ضيقا في باب مسدود، لا نرى منه سوى تضخم الذات المريضة التي لا تثبت نفسها إلا على أساس فكرة تحجيم الآخرين والغائهم عندما لا تستطيع استخدامهم أو امتصاص مصداقيتهم...

إن مأساة الثقافة في الجزائر تبلغ أوجها في مجال التاريخ لكونه أصبح محور اهتمام الجميع وفي مقدمتهم ذوي النفوذ والسلطة لارتباطه بمكاسب قائمة على الشرعية التاريخية والحق الالهي المكتسب ... وهذا ما جعل المهتمين به ومنهم الأستاذ اسماعيل العربي، ينظر إليهم ككتاب القصر وليس كمؤرخي العصر، فتفرقوا جماعات وأفرادا، فهناك مؤرخون بحكم المهنة والوظيفة وليس بفعل الكفاءة والقدرة على البحث، وهناك مؤرخون بالطلب والاستخدام المؤقت لا تشترط فيهم الكفاءة وإنما يطلب منهم التمثيل فقط ... وهناك المؤرخون المستنكفون الذين احتكوا بواقع الثقافة التاريخية خارج الجزائر بحكم تكوينهم الجامعي وعرفوا مخاطر الاستخدام المفرط على حساب المصداقية العلمية وأرادوا المحافظة على

عذريتهم الثقافية، وهناك مؤرخو السلطة الذين يتناولون التاريخ من خلال قناعاتهم الأيديولوجية، أغلبهم أصبح مؤرخا بفعل تكوينه في مجال البحث في العلوم الاجتماعية بعد أن وجد فائدة في التعامل مع السلطة التي أخذت بأفكارهم ما دامت لا تغير الواقع ولا تتجاوز التبرير، ولعل هذا جعلها ترى فيهم البديل الذي يغنيها عن التعامل مع المؤرخ الأكاديمي الحر، هذا دون أن ننسى المؤرخين الهواة وهؤلاء أسعد حظا بل أكثر مصداقية من الجماعات الأخرى التي تتعامل مع التاريخ في الجزائر، لأنهم يمارسون الثقافة التاريخية عن مبدأ القناعة الشخصية والميل الفطري، وإن ظلوا بعيدين في حياتهم عن الاحتكاك بالبيئة الجامعية الأكاديمية، وقد كان لهذه المجموعة اسهام كبير ومكانة متميزة في مجال الثقافة التاريخية في الجزائر، ومن وجوه هذه الجماعة نذكر الشيوخ والأساتذة الكرام أحمد توفيق المدني وعبد الرحمان الجيلالي ومحمد علي دبوز ومحمد بن عبد الكريم والمهدي البوعبدلي دون أن ننسى فقيدنا الأستاذ اسماعيل العربي.

إن ما أصابنا في أنفسنا وفي وطننا وفي مجتمعنا لهو بحق لعنة القدر وعقدة أوديب ومصير سيزيف، منا من قضى نحبه ومنا من ينتظر نهايته، ولكن الجميع يعاني انعكاسات هذا الوضع اللامعقول الذي يعيشه الرجل الحر في الجزائر، سواء من كان ضحية له أو من كان سببا فيه بممارساته المدمرة ومواقفه المتواطئة في اذلال حملة العلم وإهانة أصحاب الثقافة ومحاصرة رجال الإبداع ... فمارس الجميع في غفلة من أمرهم لعبة تدمير الذات كهواية وقلب طبيعة الأشياء كمنطلق يحتكم إليه، فألهتنا المهرجانات الفارغة عن حلقات الدراسة ومخابر العلم وتأملات الابداع، واستسلمنا لخطاب رسمي يتجاهل أهل الثقافة والعلم ويرى فيهم أشخاصا غير موثوق بهم إن لم يكن بهم مس من الجنون، عليهم أن يكونوا في أحسن أوضاعهم خدما للسياسيين وأبواقا للأيديولوجيين وتبعا لذوي السلطة والقرار. إن الاستسلام لهذا الواقع المأساوي لهو بحق تواطؤ بالصمت أو مشاركة بالقول في طمس معالم المستقبل، بل هو السير في طريق يلغي الحاضر من أجل الماضي ويحول الوطنية إلى شعارات والوطن إلى حذاء والقيم إلى خرافات والمكاسب إلى مبادئ...

لقد انقضى الأستاذ اسماعيل العربي كما انقضى قبله جمع من رفاقه الميامين من وجوه العلم والثقافة في مجتمعنا، وسوف يلتحق به لا محالة آخرون لأنهم

شموع تضيئ ما حولها لتستهلك نفسها، وستبقى الجزائر كالقطة التي تأكل أولادها والثكلى التي تبكي بنيها ... إن تجاهل الأستاذ اسماعيل العربي في حياته وفي موته في ديار الغربة لهو صرخة مظلوم بل لعنة قدر لمن جعلوا الجزائر رغم سعتها سجنا للثقافة ورغم تنوعا لونا واحدا للحياة، ورغم غناها مكاسب شخصية تقتضي اقصاء الآخرين ونفيهم من الحياة واستئصالهم من الوجود.

لقد كان لوجود الأستاذ اسماعيل العربي معنى ولعمله هدفا ولنهايته عبرة، في الوقت الذي لم يكن ولن يكون فيه معنى أو هدفا أو غاية لمثقفي الإدارة وأبواق الأيديولوجية ومزوري التاريخ، لأن الاعتبارات الظرفية تظل في حكم التاريخ بمظاهر خادعة لا تلبث أن تزول فيعودون إلى مكانهم الطبيعي مع جمهرة الراكضين والمهرولين والمطأطئين والانتهازيين والوصوليين وشاهدي الزور على عالم الثقافة المنكوب وعالم الإبداع الملغى وعالم الشباب المهمش، كما أن الممارسين لهذا الفعل المخل بالثقافة والمتواطئين معهم الذين ألغوا دور المثقف في المجتمع ومكانته في الدولة، سوف يحصدون العواصف لأنهم لم يزرعوا سوى الرياح وسوف تلاحقهم نقمة الأجيال ولعنة التاريخ لأنهم تسببوا بتهميشهم للثقافة في عقم الفكر وفراغ الذاكرة واستباحة شرف العلم وعزة المعرفة في عالم الجزائر المضني والمعذب.